

رهانات الفكر الإسلامي المعاصر في كتابات أبو القاسم سعد الله: التجربة الجزائرية

إسماعيل نقاز

جامعة سيدي بلعباس

إن حركة الفكر الإسلامي المعاصر تستجدي في طريقها رهانات أصبحت تشكل هم العقل العربي والإسلامي المعاصر، نظرا للملازمات التي يفرضها الواقع العربي والإسلامي على حد سواء، فمشاريع النهوض والإقلاع الحضاري ومعاني السيادة والاستقلالية، لا زالت تترنح في مخاض مجتمعي وسياسة تتخبط في أحضان الرداءة والتميع، وهنا أصبحت رهانات الفكر الإسلامي المعاصر والإشكالات الكبرى ملحة بالوقوف عليها، وتذليل صعابها.

يأتي مؤرخنا المرحوم سعد الله في وسط هذه المخاضات التي تعيشها الأمة، ولم يكن غائبا أبدا؛ بل إن الدراسة التاريخية المعمقة التي اشتغل بها زادته قوة في التصدي لإشكالات الفكر الإسلامي المعاصر، بل كانت تؤرقه، وأصبحت الهم الأكبر الذي لا بد أن يناضل من أجله الباحث العربي والإسلامي، على غرار أبحاث المعرفة التي يخوضها.

لقد ترك سعد الله ميراثا حضاريا استوحاه من معين التجربة العربية والإسلامية في وسط الركاب الذي باتت وأصبحت تترنح في شعبه وأوديته، وفي هذا المقام نقدم إطلالة عن الرهانات التي أجاب عنها سعد الله فيما يشغل الفكر الإسلامي المعاصر من إشكالات وتساؤلات، ولعل الحديث عن سعد الله المؤرخ لا يبتعد كثيرا عن سعد الله المفكر الإسلامي الوطني الجموح نحو كل معاني الاستقلالية وآليات النهوض الحضاري.

وقد جاءت هذه الورقة التي تحمل عنوان: أبو القاسم سعد الله ورهانات الفكر العربي الإسلامي المعاصر، لتجيب عن أهم المجالات التي خاضها في بحر المنظومة الفكرية الإسلامية وما تواجهه من تحديات ورهانات، في هذه النقاط التالية:

- المطلب الأول: أبو القاسم سعد الله؛ حديث النشأة والنبوغ
 المطلب الثاني: سعد الله وهموم الفكر العربي الإسلامي، التجربة الجزائرية
- 1_ مفهوم الإصلاح والثورية.
 - 2_ بين الوحدة العربية وأعدائها... تجليات ذلك في الجزائر
 - 3_ جمعية العلماء المسلمين... وقراءة سعد الله.
 - 4_ الاتجاهات الإسلامية المعاصرة في الجزائر من 1830 إلى 1954

المطلب الأول:

أبو القاسم سعد الله؛ حديث النشأة والنبوغ

إن الحديث عن هذا العلم الجزائري يستدعي رؤية واضحة عن المسارات العلمية التي تدرج فيها، أ.د. أبو القاسم سعد الله من مواليد 1930م بضواحي قمار(وادي سوف)، الجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين... وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات: من وظائف، ومؤلفات، وترجمات... وهذه السيرة الذاتية المفصلة، ننشرها بمناسبة تكريمه في معهد المناهج، عربون وفاء، ودليل حب وتقدير، لمن وهب عمره لخدمة العلم والمعرفة، حتى غدا قدوة لكل باحث، وعرف بلقب شيخ المؤرخين الجزائريين. توفي يوم 14 ديسمبر 2013 بالمستشفى العسكري حيث كان يتلقى العلاج⁽¹⁾.

المطلب الثاني: سعد الله وهموم الفكر العربي الإسلامي... التجربة الجزائرية بالنظر إلى كتابات سعد الله فإننا نجد العمق الإسلامي لا يغيب في اصطحاب الهموم الوطنية، وهنا تظهر المجالات التي اجتمع فيها الدين / الوطن، أو الهوية/ التاريخ، هذه الثنائيات التي لا يكاد يفصلها المفكر عن بحوثه، بل ما فتئ وهو يقدم مقارباته يجمع الحديث عن الدولة والأمة، وتظهر هذه التجليات في حديث مفهوم الإصلاح والثورية بين الحركة الوطنية وهم الأمة، إشكالات الهوية وحديث التعريب، جمعية العلماء والدور الإصلاحي، الحضارة بين مفهوم الدولة والأمة، الوحدة العربية.... الخ.

1/ مفهوم الإصلاح والثورية :

ينطلق سعد الله من الإصلاح بوصفه الإشكالية التي تبحث في عمق الأزمات التي يترنح فيها الفكر العربي الإسلامي أثناء الحقبة الاستعمارية وبعدها. وفي هذا الأساس يطرح عدة مسائل تتعلق بالحركة الوطنية في نضالها، والرؤى المختلفة بين الإصلاح والثورية. يتوجه الحديث عن الإصلاح من دلالة المصطلح حيث يعتبره سعد الله مدلولاً ظرفياً، تظهر أهميته عندما نكون بإزاء تجليات معاني الاستبداد والظلم: « إذا ظهر عالم أو سياسي في قومه، وأراد إصلاح الأحوال الفاسدة التي هم عليها، في السياسة والدين والاجتماع والاقتصاد »⁽²⁾. لكن هذا المفهوم في نظر سعد الله أصبح متكئاً على كل من هم بالتغيير مهما كان، لهذا كان سلماً إلى كل تغيير، ولو إلى الأسوأ، فيعتقد أن ما فعله أحمد باشا في تونس، والخديوي إسماعيل في مصر، والحسن الأول في المغرب كان في نظرهم إصلاحاً، عندما استقدموا النظم الأوروبية إلى بلدانهم، « والمعروف أن هؤلاء جميعاً قد أفلسوا بلدانهم باسم الإصلاح، وربطوها بعجلة الامبريالية، بدل تخليصها من

التخلف، فكان الإصلاح في هذه الحالة نكبة لا رحمة...فقد أدى (الإصلاح) في البلدان الثلاث إلى الاستعمار بطرق مختلفة»⁽³⁾.

ويرجع مرة أخرى إلى فك شفرة مفهوم الإصلاح والثورة عندما يحلل مسارات الحركة الوطنية، في تعدد مواقفها فمنهم الإصلاحيون والثوريون، وقد صنف الذين نادوا باستقلال الجزائر بالثوريين، أما المصلحين فوصفهم بأولئك الذين قبلوا بالتعايش مع الاستعمار ووجدوا لذلك شتى المعاذير. «وهكذا وصف أعضاء اللجنة المركزية لحزب الشعب 1953 بالإصلاحيين، لأنهم في نظر خصومهم تعاونوا مع إدارة شوفالبيه، ورفضوا زعامة مصالي الحاج، وحين انفجرت الثورة كانت بقيادة اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وطوال سنوات الثورة كانت الحرب ضد الاتجاه الإصلاحي خوفا من أن يقبل بالتعايش مع الفرنسيين، ويرضى باتفاقيات وسطية "إصلاحية"، لا تشرف كفاح الجزائر»⁽⁴⁾.

وبناء على هذا المفهوم فهو ينظر إلى كل من الإصلاح والثورية مصطلحين تجديديين، ولا مشاحة في الاصطلاح، فقد يكون الإصلاح ثورة، وقد تكون الثورة إصلاحا. المهم أن تؤدي هذه المفاهيم معانها في التحرر والسيادة والاستقلالية السياسية والاقتصادية.

إذن ماهي معايير الإصلاح؟... أو كيف نصلح؟

ينطلق سعد الله في بيان معايير الإقلاع الحضاري للأمة والوطن، عندما يقوم بمقاربة لفلسفة تاريخ كثير من الثورات والإصلاحات التي أتت عليها الدورة الحضارية كما يقول ابن خلدون، في أوروبا وأمريكا وغيرها من البلدان، يعتقد سعد الله أن كثيرا من هذه الدول والأمم، قد اتخذت من الرجوع إلى الذاكرة التاريخية والهوية الأساسية سلما إلى الترقى والازدهار، فلم تشهد أمة تغيرا حضاريا إلا بعد استحضر قوي لمعينها التاريخي واستحضر لمراكز القوة التي استند

عليها ماضي هذه الدول» عندما يصلح الانجليز مجتمعهم فإنهم يرجعون في ذلك إلى قيم مجتمعهم، ونظمهم المتعاقبة من المسيحية إلى الانكليكية، إلى نظام الحزبين، إلا التقاليد الملكية... وإلى أفكار لوك ومبادئ الثورة البيضاء، ولا يهم بعد ذلك أن يكون المنفذ للإصلاحات هو "فلاد ستون" الليبرالي، أو "ديزرائيلي" المحافظ اليهودي... فهذه فرنسا التي كانت ضيفا ثقيلنا علينا، علمتنا أنها لا تستمد إصلاحاتها فقط من تصريح حقوق الإنسان والمواطن، ومبادئ الماسونية... ولكنها استمدت إصلاحاتها أيضا - وفي كل وقت - من صوفية جان دارك، وليبرالية فولتير، واشتراكية سان سيمون... والتقاليد القومية والجمهورية»⁽⁵⁾.

أمام هذه المعيارية التي استدلت عليها سعد الله من خبرة التاريخ واستحضار الدورة الحضارية لمختلف الدول والقوميات، ينظر إلى أن اعتزاز الأمة بموروثها ومراكز المجد والرقى فيها هو عين الخطوة الإصلاحية المنشودة.

يسلط سعد الله الضوء على الجزائر وإصلاحاتها، فيستشكل قائلا: «ولكن ماذا عنا نحن؟ من أين نبعت إصلاحاتنا؟ هل نبعت من القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح من الخلفاء والعلماء؟ ما نظن ذلك ولا يظهر أن ذلك قد أهمها في شيء. هل نبعت من موثيق الحركة الوطنية ابتداء من تعاليم الأمير عبد القادر إلى قوانين المنظمة السرية ومبادئ ابن باديس في الإصلاح... هل نبعت من موثيق الثورة الجزائرية ابتداء من بيان أول نوفمبر ومرورا بميثاق طرابلس، والميثاق المغضوب عليه 1964، والمرحوم 1976، والمسكوت عليه 1986؟ إن كل ذلك كله أصبح على ما يظهر خارجا عن قواعد اللعبة»⁽⁶⁾.

لكن ما هي الأسباب التي حالت دون هذه النهضة الذاتية والاستفاقة الشخصية، حالت دون الرجوع إلى سؤال الهوية الذي لا طالما امتلأ فيضا من المقومات الأساسية للوطن والأمة.

يعتقد سعد الله أن المجال السياسي والاقتصادي والثقافي الرث هو الذي حال دون مضي حقيقي نحو معاني الإصلاح الحقيقية؛ حيث فشل الأحزاب السياسية هو الذي حال دون ذلك، لأن هذه الأخيرة قامت على نشر عناوين الطائفية والعرقية والدينية والجهوية، إضافة إلى عناصر سياسية أخرى قامت على تخدير الشعوب وصدّها عن طموحاتها.

ينتقد سعد الله موجة الانفتاح السياسي عن طريق التعددية الهوجاء، التي تخلفت عن كل معاني الديمقراطية والرؤية الواضحة المستمدة من عمق الأزمة وغيوبها، بل إنه يرى أن ما سمي بمرحلة التعددية والانفتاح لا يراد بها خدمة الحرية والديمقراطية بالمفهوم العلماني الغربي، وإنما يراد بها: «تمثيل مسرحية تلمي الناس وتغرقيهم في دوامة التساؤلات حول ماضيهم وعلاقاتهم ومصيرهم، بينما يكمل الممثلون الأدوار التي كانت ستضيع من أيديهم. ويوضح ذلك التقارب العلني والخفي مع فرنسا، رغم ماضيها المعروف معنا»⁽⁷⁾.

أما عن الاقتصاد فلا إضافة سوى أن الدولة في بداية مرحلة التعددية لم تدري أي نظام تتبع أهو الليبرالية أم الاشتراكية، لأن الاقتصاد العاجز لا يجعله قادرا على الحسم وإظهار الأنا الذاتي، "إنما العاجز من لا يستبد"، كل ما هنالك زيادة في الضرائب والاقتراض من هنا وهناك.

أما عن الجانب الثقافي، فيعتقد سعد الله أن غياب مفهوم حقيقي للاستشراف المستقبلي لمستقبل الموروث الثقافي للوطن جعل الأطماع المختلفة تقلب مفهوم الثقافة كما يحلو لها، ومن مختلف الأيديولوجيات الآتية رياحها من وراء البحر: «وفي غياب المشروع المستقبلي أخذت الفؤوس تهاوى على كل الثوابت من دين ولغة وتقاليد وتاريخ وتراث حضاري مشترك، وظهرت الخصوصيات الثقافية، والتعددية اللغوية، واللانكسية، والتراجع عن التعليم الديمقراطي،

وظهرت الفرنسية في أحاديث التلفزة، ووقعت الردة عن العربية في الإدارة والمؤسسات...»⁽⁸⁾.

2/ بين الوحدة العربية وأعدائها... تجليات ذلك في الجزائر:

يصر سعد الله في كتاباته التاريخية والفكرية على مفهوم الهوية ومعاني الوحدة والعروبة والإسلام التي كانت مؤسسة في الحركة الوطنية، حيث إن كل من يحيد عن هذه الخطوط المصيرية إما أن يعدم على يد الحركة الوطنية أو يبعد تماما، لكن في نظر سعد الله أن هذه الخطوط بدا عليها التميع والتلاشي بداية 1965م، حيث أصبحت تنقض عروة عروة، وإن بدت غير ذلك في الظاهر، في اتجاه سلبي. ويتجلى ذلك في النقاط التالية:

أولا: عودة الشيخ إلى قبيلته:

إن ظهور عناوين القطرية والقبلية المقيتة حال دون أي معنى حقيقي من معاني الوحدة الوطنية، والمغربية، والعربية الإسلامية، ففي هذه الأثناء ظهر نزوع نحو فكرة أن الثورة الجزائرية لم تتلق الدعم من أي أحد، وأصبح هذا الشعار لقمة صائغة في يد العروشين أصحاب الآفاق القطرية القبلية الضيقة. وقام على إشعار لهيب معاني الانفصالية، فاتخذ الانفصاليون منها سلما نحو الابتعاد عن كل ما هو مغربي وعربي وإسلامي⁽⁹⁾.

وزاد هذا الشعور المقيت بعد هزيمة العرب 1967م، فأصبح الاحتقار من العرب ذريعة نحو قطع العلاقات وشرخها، وخير دليل على ذلك عدم وجود بعض السفارات في الشرق العربي، إضافة إلى القطيعة الجزائرية المغربية سنة 1975م، وقد تأثرت بها تونس بعض الوقت.

وقد ساعدت هذه الظروف كثيرا من النزعات نحو إظهار العرقيات؛ حيث كانت الأكاديمية البربرية بفرنسا تنشر مفاهيمها وسط المهاجرين والطلاب، إضافة

إلى النزعات الصهيونية لم تأل تثير كل الأقليات والعرقيات، وتحدث ألوان التصادم بشتى أشكاله، إضافة إلى الفرنكفونية أعداء العربية، وتأثير أصحاب الأقدام السوداء، والحركي... الخ. ما هذا الشعور المقيت، والانعزالية المخيفة يحلل سعد الله عيون الأسباب الحقيقية، يستحضر ذلك كله في نقاط متعددة أهمها:

*الماسونية الجديدة: يحدثنا سعد الله عن جمعية دراسة حضارات البحر الأبيض المتوسط، حيث كان يهب إليها كثير من ذوي الأهواء القبلية والفرنكفونية. يتكلم بتلفيق الحقائق التاريخية عن بلدان المنطقة.

*مركز لاكراب: وكان هذا الأخير مجمعا يجتمع فيه زيجات معروفة بميولها الفرنكفونية والبربرية، وتدعي أنها تبحث عن أصل سكان الجزائر، فتنقل إلى مختلف المحافظات والضواحي بين الفيافي وأقاصي الجبال، والغريب في الأمر يقول سعد الله: «لو كانت هذه العناصر جزائرية ومسلمة لهان الأمر، ولكن كانت عناصر أخرى؛ إما لا علاقة لها بالجزائر أصلا؛ بل لها علاقة بالكنيسة، مثل القس كامبوزا، وإما جزائرية غير مسلمة مثل السيدة كولونا، التي جعلت همها الكتابة عن إنسان الجزائر الذي ما يزال في نظرها يبحث عن هويته الضائعة»⁽¹⁰⁾.

بل إن مديره في ذلك الوقت إلى تدريس اللهجة البربرية باللغة الفرنسية، وإن كانت غير مقررة، لكن كانت مفوضة من جهات رسمية.

*دعاة رمسيس ويوغرطة: إن الضربات التي وجهت إلى الاتجاه الوجودي لم تقف عند أدياء الفرنكفونية غيرها نم الأفكار الهادمة، ولكنها اجتازت ذلك إلى عمق الشبكة الاجتماعية والأصلية التي تجمع المجتمع في قرابة الدم والأرض واللسان والوطنية، حيث ظهر اتجاه يقوم بحفريات للتاريخ باحثا عن أي انتماء

غير انتماء العروبة والإسلام، وهنا ظهرت دعوات مختلفة كل يغني على ليلاه، وينسب للجزائريين ما هم في غنى عنه:

_ فبعضهم يدعي أن الجزائريين ليسوا عربا أقحاحا ولا أمازيغ أقحاح، وإنما هم مزيج من هذا وذاك.

_ وبعضهم يمجّد يوغرطة وعهده، ويعتبر أن المجتمع الجزائري هو استمرار لعهد يوغرطة، واتخذوا من مقوله الرئيس الفرنسي⁽¹¹⁾، حين قال: "إن فرنسا التاريخية تحي الجزائر المستقلة"، كي يؤكدوا أن عمر الجزائر يتجاوز ألفي سنة، وقد صاحبت هذه الموجة كثيرا من الصيحات التي ضربت وقعها في الدول العربية، فظهر من نادى لأهل مصر بالفرعونيين، ولأهل لبنان بالفينيقيين، ولأهل العراق بالأشوريين.

لكن هؤلاء بدعوتهم لا يحذقون أن اجتماع أهل هذه البلاد لم يكن على يوغرطة، وإنما كان على عقبة بن نافع، يؤكد سعد الله في تنفيذ هذا الادعاء بقوله: «إن رمز يوغرطة يفرق بيننا في المكان، لأن الجزائر لم تكن موجودة في عهده بهذا الاسم، ولا بهذا الحجم، ولم يكن هو يستعمل اسم الجزائر، ولا كان يحارب الرومان باسمها الجغرافي، لماذا يريد أنصار يوغرطة أن يفرضوا قبيلته على سكان الغرب الجزائري، وسكان الجنوب، وسكان الوسط؟ وباسم ماذا؟، هل كان يوغرطة يتكلم لغتنا؟ هل كان يدين بديننا؟ وهل كانت قيمه وعاداته وتقاليده هي قيمنا وعاداتنا وتقاليدينا؟ اللهم لا»⁽¹²⁾.

أما عقبة فهو رمز عقيدتنا ولغتنا وتاريخنا، في الشمال والجنوب والشرق والغرب، في هذه المساحة التي سماها أجدادنا "بالمغرب الأوسط"، ونطلق عليها منذ العثمانيين "بالجزائر"، ثم إن عقبة رمز حضارة ووحدة وطنية ومغربية وعربية وإسلامية، أما يوغرطة فرمز جاهلية ووثنية وقبلية وانفصال.

ثانيا: عن أي وحدة نبحث...

إن تجليات الوحدة تنطلق في نظر سعد الله من أبناء الوطن الواحد، أو ما يسمى بتوحيد أركان الدولة القطرية، فهي سبيل نحو أي وحدة في ما بعدن بعد نتوجه إلى الوحدة المغاربية، ولا مبرر في نظر سعد الله لأي نعرات من شأنها أن تشعل فتيل الفرقة بين المغاربة، ولعل ما يحدث بين الجزائر والمغرب خير دليل على أوشاج هذه الوهاد المقيتة.

ثم إن الوحدة المغاربية طريق إلى الوحدة العربية والإسلامية، التي أصبحت حلما صعب المنال، ويستند سعد دائما إلى التاريخ ليستنطق شواهدده، ويستحضر قواعد فلسفته، فيؤكد على اللحمة التي عاشتها هذه الدول أيام العثمانيين في ربيع زمانهم⁽¹³⁾، حيث كانوا محل هيبة أمام الشعوب والأمم. لكن الفرقة لا تحصد إلا عناوين المذلة والخزي.

3_ جمعية العلماء المسلمين... وقراءة سعد الله:

إن مدونات سعد الله لا تكاد تخلو من الإشارة والتأريخ لجمعية العلماء المسلمين، حيث إن هذه الأخيرة استقطبت بأفكارها وأعمالها، مالم تستطع أن تقوم به أحزاب قديمة في العمل النضالي، فمنذ 05 ماي 1931 ابتدأت باكورة السعد على المجتمع الجزائري، وقد نقل سعد الله رواية البشير الإبراهيمي أن ابن باديس قد زاره في سطيف، سنة 1924، وأخبره بخطته في خلق جمعية العلماء في قسنطينة، تحت اسم "جمعية الإخاء العلمي"، لكن الظروف الاحتلالية حالت دون ذلك، فتأخر المشروع 06 سنوات.

وقد ساعد على انتشار الجمعية وأفكارها أنها تخاطب كل فرد جزائري، فتوجهها كان عموديا وأفقيا، أي أنها لم تستأثر بفضة دون أخرى، بل إنها خاطبت المجتمع على مختلف أطرافه وظروفه⁽¹⁴⁾، وقد خاطبت الإنسان، في عقله ودينه،

وهنا توجهت أهداف الجمعية نحو تصحيح المفاهيم العفنة المتخلفة التي أبقت المجتمع يسبح في مستنقع الجهالة والقدرية والانبطاح، ظهر توجه الجمعية واضحا في إعادة البعث الحضاري وإحياء العقل العربي الإسلامي، وحملات التثقيف والتعليم المكثفة، لأن الجمعية آمنت أن كل هذه الأزمات قد أتت خلف عنوان كبير اسمه الجهل.

لكن سعد الله يرجع تاريخ النهضة الإصلاحية الدينية إلى ما قبل جمعية العلماء، وليس كما يظن البعض، فقد سبقتها إرهابات وتجليات متعددة منذ الاحتلال الفرنسي، فقد كانت أعمال حمدان خوجة، وأعمال الأمير عبد القادر، وكتابات عبد القادر المجاوي، وعبد الحليم بن سماية، والمولود بن الموهوب، وحديث المكي بن باديس عن إصلاح القضاء، وحديث سعيد بن زكريا عن إصلاح الزوايا، ثم حديث الشيوخ الإبراهيمي والعقبي وابن باديس بعد أن درسوا في تونس وبعضهم في المشرق، وكذلك تبني الشيخ المولود الحافظي لفكرة الحزب الإصلاحي، وظهور هذه الأفكار على ألسنة الشعراء آل خليفة، إضافة إلى حركة الأمير خالد، بعد هذه الحركات إن صح التعبير جاءت جمعية العلماء⁽¹⁵⁾.

وينقم سعد الله على أولئك الذين نقدوا الجمعية عندما لم تجعل العمل السياسي من أعمالها، واعتبروها ابتعدت عن المنحى النضالي، يجب على ذلك سعد الله قائلا: «وأمام المد الاستعماري... كان على الجمعية أن تنص في قانونها الأساسي على عدم التدخل في الشؤون السياسية، فحركة الأمير خالد السياسية حاربتها القوي الاستعمارية حتى قضت عليها ونفت أصحابها، والنشاط الشيوعي الذي ظهر خلال العشرينات واجه موجة من الإرهاب الاستعماري جعلته يتراجع إلى حين... فكيف يكون مصير جمعية العلماء عندئذ لو جعلت العمل السياسي من أهدافها المعلنة؟ إن الجاهل بالأمور، أو المتحزب الأعمى هو الذي ينعى على

الجمعية عدم إدراج العمل السياسي في قانونها الأساسي، ثم هل يحتاج العمل من أجل الوطن إلى الإعلان الصريح عن النضال السياسي؟ إن حزب الشعب الجزائري الذي ورث مبدأ المطالبة بالاستقلال عن نجم الشمال الإفريقي، كان يحذف عبارة الاستقلال من قاموسه الرسمي خلال بقية الثلاثينات، مكتفياً بدلها بكلمة التحرير أو التحرر حتى يتفادى التصادم المباشر مع الإدارة الاستعمارية»⁽¹⁶⁾.

يرجع سعد الله الأسباب الرئيسة في تشكل الجمعية على العوامل التي تأثر بها أعضاؤها، ويظهر ذلك على خلفية الدراسة التي تلقوها بشتى الجامعات العربية، فتأثروا بمختلف الحركات العربية الإسلامية الإحيائية.

1/ كان هناك تأثير الشيخ عبده، حركة الجامعة الإسلامية، ولا سيما فكرته عن الاجتهاد.

2/ تأثير مجلة المنار، وكتب المصلحين الدينيين، مثل ابن تيمية، والشوكاني.

3/ الثورة التعليمية التي أحدثها ابن باديس بعد عودته من تونس والمشرق.

4/ الوقع النفسي للحرب على الجماهير الجزائرية، الذي أدى إلى تدهور الاعتقادات الخرافية، بالإضافة إلى تدهور المبادئ "المقدسة"، في أعين هذه الجماهير.

5/ عودة بعض أبناء الجزائر المخلصين المؤمنين من الحجاز منبت الإسلام، ومركز الحركة الإصلاحية⁽¹⁷⁾.

إن موقف سعد الله من الجمعية هو موقف المؤرخ الذي وقف على أهم المحطات التي سارت نحوها أهداف وغايات المؤسسين، على الأقل ابن باديس وإبراهيمي والجماعة المؤسسة الأولى.

4_ الاتجاهات الإسلامية المعاصرة...قراءة ونقود: 1954/1830

يتوقف المؤرخ سعد الله في موسوعته حول تاريخ الجزائر الثقافي، عند محطة الفكر الإسلامي، أو المنظومة الدينية في الفترة الاحتلالية التي سادت بالجزائر، إن الوعاء الديني في منظومته القيمية والتشريعية قد اتخذ بعدا عميقا ومتجذرا في الثقافة الجزائرية، وهنا سنقف مع سعد الله ليحدثنا عن هذه التوجهات الدينية المختلفة أثناء المرحلة الاستدمارية.

يصنف سعد الله حركية التوظيف الديني لمعاني الإسلام إلى صنفين: الإسلام المجاهد والإسلام السكوني، حيث يرى أن هذه الحركية مرت بثلاثة مراحل: ابتدأت بالإسلام المجاهد على يد المرابطين الصوفية الأوائل، وهو يقصد الأمير عبد القادر، والشيخ بوعمامة، والشيخ المقراني، والشيخ الحداد... الخ، ثم انتقل إلى الإسلام السكوني عن طريق الانبساطيين من بعض الطرق الصوفية التي أصبحت تدعو إلى الدعة والخمول والخرافة... الخ.

ثم في المرحلة الأخيرة بعد نوفمبر 1954 انتقلت حركية الإحياء إلى الإسلام المجاهد، لكن لم يكن هذه المرة روادها المرابطون، بل الجماهير التي عادت إلى الرشد وصحت من الغيبوبة والخمول، كما أن قادة الإسلام السكوني قد فاتهم القطار مع ثورة نوفمبر⁽¹⁸⁾.

وقد استقرأ سعد الله هذه الاتجاهات إلى ثلاثة: 1_ اتجاه تقليدي 2_ اتجاه معتدل 3_ اتجاه إصلاحي⁽¹⁹⁾

أولا: الاتجاه التقليدي:

ويعني به الاتجاه التقليدي في موقف رجال الدعوة الإسلامية من الاستعمار إيجابيا وسلبا، ويتمثل الإيجاب في حركة الجهاد التي قادها رجال الطرق الصوفية _ المرابطون_ أمثال لالة فاطمة... الخ، ويتمثل الجانب السلبي في الموقف السكوني

الذي اتخذه بعض رجال فروع الطرقتين الرحمانية والدرقاوية، وغيرها من الطرق التي لم تسهم إسهاما مباشرا.

لقد تفتنت السلطات الاحتلالية إلى أهمية الطرق الصوفية ورباطاتها، فقامت باختراقها، وتمييعها عن طريق وسائل شتى مادية ومعنوية وقسرية، فجعلوا بعض المرابطين قيادا، أو عن طريق الوظائف والإغداق بالأموال، وأحيانا أخرى عن طريق الإرهاب والقتل، وجعل الأب ضد ابنه، والابن ضد أبيه... الخ.

ثانيا: الاتجاه المعتدل:

إن ما اعتادت عليه بلادنا وتقاليدنا أن العاملين في الحقل الديني صنفان: صنف يعيش من أموال العامة، وصنف يعيش من أموال الدولة، أما الاتجاه الأول فهم المتصوفة وقد تكلمنا عنهم آنفا.

أما الصنف الثاني فهم الفقهاء وهي تعني كل من توظف عند الدولة سواء كان قاضيا، أو مفتيا، أو إماما، أو معلما ومدرسا... الخ.

وهؤلاء في قراءة سعد الله هم الذين تخرجوا في الغالب من المدرسة الفرنسية التي أنشأتها سنة 1850، وذلك من أجل الاستعانة بهم في ملء المكاتب العربية، وإدارات الشؤون الأهلية، وكذا الوظائف الدينية المختلفة، لكن هؤلاء لم يكونوا محل ثقة من طرف المحتل، لذا كانوا مراقبين، وبعض هؤلاء كانت مواقفه مرتبطة بفرنسا فلا يتكلم ولا ينقد، وبعضهم الآخر حاول التعبير عن موقفه من المحتل، فأسهم في التأليف وبعث الهوية الوطنية مثل ابن أبي شنب، ودعا الآخرون إلى اليقظة العلمية مثل ابن الموهوب والمجاوي، وانتقد آخرون التدخل في شؤون القضاء الإسلامي مثل المكي بن باديس، ووقف ابن سماية ضد تجنيد الجزائريين إجباريا في الجيش الفرنسي.

وهناك من تأثر بحركة الجامعة الإسلامية، فدعا إلى تحرير العقل والعمل بأصول الإسلام الصحيح مثل مصطفى بن خوجة، فهذا الاتجاه لم يصرخ في وجه المحتل صراحة، وإنما انتقد بعض التصرفات، ودعا إلى العلم والمعرفة، لكن هذا أصحاب هذا الاتجاه أصبحوا محافظين بعد ظهور الاتجاه الإصلاحية.

ثالثاً: الاتجاه الإصلاحية:

ما فتى سعد الله يفند مقولة أن حركة الإصلاح الديني والاجتماعي بدأت بجمعية العلماء المسلمين، ذلك أن الدعوة إلى الإصلاح أقدم بكثير من تاريخ إنشاء الجمعية. لكن المتتبع يجد أن هؤلاء ابتداءً نضالهم مع كتابات عبد القادر المجاوي في السبعينات من القرن الماضي عن التعليم، وكتابات المكي بن باديس في الثمانينات عن إصلاح القضاء، وهذان الرجلان أعطيا راية الإصلاح على تلاميذهم وأحفادهم، فالأول نشر أفكاره عن طريق المدرسة، فكان من تلاميذه ابن أبي شنب، وابن الموهوب، وابن الخوجة، والثاني أثر في المجالس القضائية وفي أحفاده، حميدة بن باديس، وعبد الحميد بن باديس... الخ.

ومن جانب آخر انتشر مفهوم الجامعة الإسلامية قبل ظهور جمعية العلماء، وذلك عند وصول رسائل السلطان عبد الحميد، وزيارة محمد عبده إلى الجزائر، وكذلك حركات التعليم إلى الحجاز ومصر وتونس، والشام، إضافة إلى حركة الأمير خالد، وأهم ما ركز عليه هؤلاء هو عمليات التثقيف وبث الوعي، والإصلاح الديني، وإحياء التراث الوطني والعربي والإسلامي، وإخراج جيل يؤمن بهذه القيم ليدعم الحركة الوطنية.

وهنا لا ننسى مالك بن نبي، وإن كان سعد الله لا يدرجه ضمن الإسلاميين الدينيين، وإنما يجعله في صنف الاتجاهات الثقافية، لكن كما يقول سعد الله: «كان يحاول أن يعطي محتوى فلسفياً للحركة الوطنية مستقلاً عن كل

التيارات والمنظمات المعاصرة، كان ذكيا ناقدا، وكان عميق النظر... عميق الإيمان بالإسلام السلفي... لقد كان كما يقال دولة وحده، وغير منتم... وقد أصبحت أفكاره تمثل وجهة خاصة بين شباب العالم الإسلامي»⁽²⁰⁾.

كان البعد الديني الإسلامي محتويا أفكار مالك بن نبي، فمقاييس الحضارة والتحرر لا يمكن أن تبتعد عن الدين أبدا، بل إن اللمسة الجمالية لشروط النهضة وإحياء المشروع الحضاري لا تشق طريقها السليم إلا على طريق الدين، فهو بصيص الأمل لمفهوم الحضارة إذا أردنا.

وهنا ننتهي عند خلاصة عامة مفادها أن سعد الله يعد المؤرخ الألمعي الذي استطاع عن طريق معرفته الثاقبة بالتاريخ، وحفظ الذاكرة الوطنية والعربية، استطاع أن يقدم للمكتبة العربية عامة والمكتبة الجزائرية خاصة قراءات نقدية تطلنا على أهم عناوين الهوية والأنا الذي لا يمكن من دونهما أن يقف الإنسان الجزائري على رجليه، وهنا عود على بدء إن الأمة التي تحترم تاريخها وتراثها وتعتز به وتتعلم من دروسه، هي الأمة الوحيدة التي خطت طريقها في سكة الرقي والتقدم.

الهوامش:

- (1) هذه الترجمة من الصفحة الرسمية للدكتور سعد الله أبو القاسم:
<http://www.aboulkacemsaadallah.com>
- (2) أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر، ط1: 1993، ص61.
- (3) أبو القاسم سعد الله، من الثورية إلى الإصلاحية إلى ...، مقال نشر في جريدة الشعب، 13 مارس 1990.
- (4) هموم حضارية، ص 62.
- (5) المرجع نفسه، ص64.
- (6) من الثورية إلى الإصلاحية إلى ... جريدة الشعب، 13 مارس 1990.
- (7) هموم حضارية، ص65.
- (8) جريدة الشعب، 13 مارس 1990.
- (9) أبو القاسم سعد الله، أفكار جامعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988 م، ص10.
- (10) حدثونا عن الوحدة، أبو القاسم سعد الله، مقالة نشرت في جريدة المجاهد الأسبوعية، 26 جوان 1981.
- (11) هو جيسكار ديستان أثناء زيارته للجزائر، سنة 1975.
- (12) أفكار جامعة، ص17.
- (13) حدثونا عن الوحدة، مقالة نشرت في جريدة المجاهد الأسبوعية، 26 جوان 1981.
- (14) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ط1: 1992، ج2/ص385.
- (15) سنأتي على ذكر هذه النماذج التي سبقت تكوين الجمعية في معرض الحديث عن اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر.
- (16) أبو القاسم سعد الله، رأي في جمعية العلماء، مقال نشر في جريدة الشعب، 14 مايو 1986.
- (17) الحركة الوطنية الجزائرية، ص389.
- (18) أبو القاسم سعد الله، الاتجاهات الفكرية والثقافية للحركة الوطنية، من أعمال المؤتمر الأول لكتابة تاريخ الثورة، الذي انعقد في أكتوبر 1981، بقصر الأمم بالجزائر العاصمة، نشرت في مجلة أول نوفمبر عدد 1928، بتاريخ 01 نوفمبر 1981 م.
- (19) أفكار جامعة، ص30.
- (20) أفكار جامعة، ص46.